الى المحكمة ، ومن المحكمة الى المنفى . وحين تناقشهم يتهمونك بالعدوان حينا وبالخيال حينا آخر . وهنا ، تفهم للمرة الثانية ما هو الوطن ؟ هو الشوق الى الموت من أجل أن تعيد الحق والارض . ليس الوطن أرضا . ولكنه الارض والحق معا . الحق معك . والارض معهم . وحين امتلكوا الارض بالقوة صاروا يتحدثون في الحق المكتسب . كان حقهم تاريخا وذكريات . وصار أرضا وقوة . وأنت بلا قوة — فقدت التاريخ والارض والحق .

[٣]

« اسمع .. يأتي المهاجرون ، ويأخذون هذه الارض ، وتصير جميلة .

« نفتح حانوتا ، ونبني مدرسة ، وكنيسا . وستكون هنا أحزاب ، وسنتناقش على عدة أمور . سنحرث الحقول ونزرعها ونحصدها . وتحيا خزعة العبرية ! ومن سيتصور ان خربة خزعة كانت هنا . طردناهم وورثناهم . جئنا . أطلقنا النار . حرقنا . نسفنا ، ونفينا » .

ليس هذا كلاما عربيا . انها صرخة ضمير نادرة أطلقها أديب اسرائيلي قبل أكثر من عشرين سنة . تعطي تحديدا دقيقا لحقيقة مفهوم الوطن . ترد على التاريخ وعلى استاذ التاريخ . هكذا قام الوطن الاسرائيلي : لا بالحق ، ولا بالتاريخ ، ولا بالهرب من الاضطهاد . بالعنف وحده : طردناهم وورثناهم . أحرقنا ونسفنا ونفيناهم . ولكن الصرخة نادرة وسط ضجيج الدعاية والاكاذيب . وحين تسير ، معهم ، بالمنطق حتى منتهاه يعترفون . ولكنهم يختتمون المناقشة بهذا التقرير الدائم : لا مفر . وينتظرون الزمن كي يحول الاعتداء الى حق يعتاد عليه الناس .

وليست خربة خزعة هي المكان الوحيد . فلسطين كلها ترجمت على هذا النحو . ان الاسرائيلي يسكن بيتا مسكونا بالاشباح ، ولكن انصرافه الى البرهنة على جدارته بالوطن وعلى صد كل ما يعيق انتماءه يجعله أصم ويحرر ضميره من التساؤل عن بضاعة الطريقة التي تشكلت بها ذاته . ومع مرور الايام ، تنكمش صورة العربي وتذوب . كانت عبئا على الضمير ، ثم تحولت الى ديكور طبيعة ثم استقرت على صورة عدو لا بد من ابادته ، ولا حق لها بالوطن .. لا حق على الاطلاق .

خلال الحرب الاخيرة ، فوجيء كثير من الجنود الاسرائيليين بأن الفلسطينيين يحملون ذاكرة . وبأنهم يتذكرون وطنا ضاع . وأكثر ما فاجأهم هو أن الاطفال الذين ولدوا بعد ضياع الوطن ما زالوا متعلقين بهذا الوطن . وروى جندي اسرائيلي انه حين دخل أحد مخيمات اللاجئين وجد ان السكان لا يزالون يعيشون بالطريقة ذاتها التي كانوا يعيشون بها في قريتهم السابقة . انهم موزعون وفقا لما كانوا عليه . القرية ذاتها والشارع ذاته . وقد اهتاج الجندي .

لماذا ؟

— كنت عاجزا عن الفهم . لقد مرت تسع عشرة سنة وما زالوا يقولون : نحن من بئر السبع !.

وقال لي جندي شاعر انه لم يشعر بأنه غريب في فلسطين يوما واحدا في حياته الا حين دخل احدى القرى العربية في الضفة الغربية بعد الحرب الاخيرة . كان في الزي العسكري . ورأى طفلة في الشارع تنظر اليه نظرة جعلته يشعر بالزلزال . من عيون الطفلة التي لا يستطيع شرح نظراتها أدرك انه محتل . لم يخف الجندي دهشته من